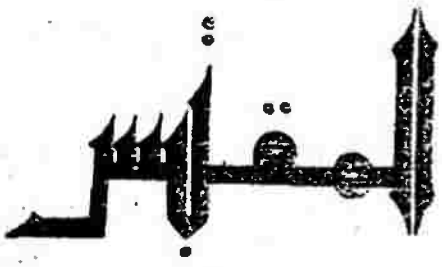

غرة شوال سنة ١٣٢٤

صدور المشارقة والمغاربة

ياقوت الحموي

٥٧٤ ــ ٦٢٦ هـ

لا يستقر بارض أو يسير الى أخرى كشخص قريب عزمه نائي
يوماً بجزوى ويوماً بالعقيق ويو ماً بالعزيب ويوماً بالخليصاء
وتارة ينتحي نجداً وآونة شعب الحزون وحيناً قصر تيماء

هذا ما استشهد به ياقوت على تنقله في الرباع والبقاع وما كان تنقله سوى تنقل عاقل يرحل في اقتناص شوارد العلم ولقاء الرجال واستنفاض البلاد فهو اشبه بعالم غربي لهذا العهد يقطع المسافوف و يركب البحار و يجوب القفار متنقلاً من قارة الى قارة يدرس ويشاهد ويعتبر . ولكن شتان بين عالم اليوم وعالم امس . فالاول يقله البخار والكهرباء والثاني يركب الخيل والبغال والجمال . الاول يضرب في مناكب الارض ووراءه دولة تحميه وامة يعتز بها وجمعيات تنفق عليه وناس يقدرون عمله قدره والثاني يخذله سلطانه وتسلمه أمته يعيش بكده ويعتمد في كل

شأن على ارادته . وغايته من دنياه في عمله الشاق ان يخلص مما تنتج قريحته رأساً برأس غير متوقع خيراً من مستحسن ولا شراً من مستهجن . وبهذا ساغ لنا ان نقول ان السائح العالم في القرون الوسطى اعظم من السائح العالم في القرون الحديثة وان الناظر في التاريخ ليستعظم اكثر ما يأثره من نير المعرفة للقدماء وقلما يستكثر ما يتم على ايدي طبقات المحدثين فما وفق اليه الجغرافي الفرنسوي الشهير اليزه ركلو مثلاً في القرن التاسع عشر من التآليف والاجادة بعد صفاء الزمن وانتظام الحال لا يستعظم كما يستعظم صنع ياقوت الحموي الجغرافي العربي في القرون الوسطى .

نشأ ياقوت اسيراً ذليلاً أُسر من الروم فقيل له الرومي وبيع في بغداد فاشتراه تاجر يعرف بعسكر الحموي واليه نسب فقيل له ياقوت الحموي ولما صار ملكه جعله في الكتاب ليتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره (تجائره) وكان مولاه اقرب الى الأمية لا معرفة له بغير الكسب . ويؤخذ مما قاله صاحب وفيات الاعيان ان ياقوتاً قرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالاسفار في متاجره فكان يتردد الى كيش وعمان وتلك النواحي ويعود الى الشام ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة اوجبت عتقه فأبعده عنه وذلك في سنة ست وتسعين وخمسمائة فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد ثم ان مولاه الوى عليه واعطاه شيئاً وسفره الى كيش ولما عاد كان مولاه قد مات فحصل شيئاً مما كان في يده واعطى اولاد مولاه وزوجته ما ارضاهم به و بقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً

وبهذا سهل على ياقوت ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان واستوطن مرو ثم دخل خوارزم وغيرها ولقي من الشدائد والمصائب ما يلقاه في العادة ارباب الافكار . منها انه ذاكر يوماً احدهم في بعض اسواق دمشق وذكر له رأيه في امير المؤمنين علي بن ابي طالب وكان منحرفاً عنه بما علق في ذهنه من

مطالعة كتب الخوارج فثار الناس عليه وكادوا يقتلونه وبلغ امره الوالي فطالبه فلم يرَ بدًّا من الفرار ولسان حاله ينشد قول الوزير ابن زيدون وقد فرَّ من قرطبة

فررت فان قالوا الفرار اوابه فقد فرَّ موسى حين همَّ به القبط

غادر دمشق سنة ٦١٣ كما غادر خوارزم يوم اتاها التتر لا سبد له ولا لبد متخليًا عن كل ما ملكت يمينه · خرج من بلد ذكر فيه رأيه وربما كان ايراده له بالاعتدال لانا لم نرَ ما قاله هو او بعض المنصفين في هذه الكائنة · فاعجب لأُمة يلعن على منبرها الخليفة الرابع نحو الف شهر من دون حرج ولا نكير ويجيء بعد قرون من يذكره بالادب من الوجهة التاريخية في تلك العاصمة نفسها فتقوم عليه القيامة فما اسرع تبدل الاخلاق والاحوال في القرون والاجيال · من النصب الى التشيع ومنه الى غيره من المنازع والنحل

كان الادب والتاريخ وتقويم البلدان او الجغرافيا هي العلوم الغالبة على ياقوت وفي الجغرافيا برَز وبذَّ لانها تتوقف على كثرة الاطلاع والرحلة وهما كانا ديدنه ودينه وما ألفه من الكتب هو من ارقى ما جادت به القرائح في عصره وبعده وان جاء عرضًا في بعضها ما يعده علماء العصر من قبيل الخرافات مثلاً فانه كان من لوازم عصره · والعلم والمعتقدات في عهدنا لا تشبه العلم والمعتقدات في عهده · على ان ما صنفه لا يزال الى اليوم معتمدًا ومعدودًا من الامهات الطيبات وكتابه الذي اشتهر به لعهدنا خصوصًا «معجم البلدان» كما ان له كتاب معجم الشعراء ومعجم الادباء — وهذا يطبع الآن في مصر كما طبع معجم البلدان فيها ثانية — وله كتاب المشترك وضعًا والمختلف صقعًا وكتاب المبدإ والمآل في التاريخ وارشاد الالباء الى معرفة الادباء وكتاب الدول ومجموع كلام ابي علي الفارسي وعنوان كتاب الاغاني والمقتضب في النسب واخبار المتنبي وغيره

هذا هو الرجل الذي رباه عامي من عامة التجار فبلغ بحدة ذهنه وتوفره على الدرس مبالغ الاعاظم الكبار وكانت حياته حياة جهد وعمل لاقى من الدهر الأ لاقي واضطهده قومه وحسده معاصروه إلا انه عرف قدره في علمه على ما كان هناك من الصعوبة في معرفة الرجل في تلك القرون في حياته . قال ابن خلكان وكان الناس عقيب موته يثنون عليه ويذكرون فضله واديبه . وياقوت الرومي في ولوعه بالعلم والرحلة كمعاصره ابن سعيد المغربي ذاك كان في الشرق وهذا في الغرب فحيا الله زماناً ينبغ فيه امثالهما

العلم الصحيح

نشرتها بجريدة الظاهر اولا

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان او دنيوي وديني فالدنيوي علم ما فيه صلاح المعاش وحفظ النظام في عالم الكون والفساد والديني كل ماله مساس بالمعاد وتهذيب النفس والابتعاد عن المنكرات في هذه الفانية للظفر بالباقيات الصالحات في تلك الدار الباقية

كان العلم الديني لاول امره موجزاً مندمجاً لم يتعد قواعد مقررة واصولاً نافعة فكان العربي يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين في ساعة ثم يحيله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك واهلك فقد عرفت من الدين جوهره وسره وما ينبغي له . ثم ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبيات من اجل التنازع على الملك وتجاذب حبل السلطة فمزج الدين بالسياسة ودخل في الاسلام من لا يهمه منه غير المغانم وراح بعضهم يدسون ما لم يقل فيما قيل وكثر المنافقون ممن سعوا بالدين في سرهم وهم من اتباعه في جهرهم وانشأوا يلبسون ثياب الاصدقاء وهم له اعداء ماكرون